جدلية العلاقة بين الحداثة والتصوف في الفكر الإسلامي (قراءة في التصورات وانتقادات في النتائج)

الأستاذ ناجم مولاي – كلية العلوم الإنسانية – جامعة الأغواط – الجزائر

تمهيد:

إذا كان هناك رأي سائد بأن الأخذ بالتراث لا ينتج عنه إلا التقليد والعجز عن التجديد, فإن البعض الآخر يرى أن سبب التقليد ليس حكرا على السلفيين بل أنه أشنع لدى الحداثيين؛ لأنه إذا كان أولئك يقلدون المتقدمين وتراث قومهم, فأن هؤلاء يقلدون المتأخرين وتراث غيرهم؛ رغم اعتقادهم بأن الحداثة والتقليد ضدان لا يجتمعان.

والحداثة العربية تقوم على تصور زمنيا يؤول إلى مجرد نقل الحداثة في صورتها الشائعة في الغرب, وهذا على أساس أن التقدم العربي يقتضي اللحاق بالركب الغربي, وعلية يرى بعض الفلاسفة والمفكرين العرب نذكر منهم هنا المفكر المغربي "طه عبد الرحمن" الذي يرى أن شرط التحرر من هذه الحداثة المقلدة, وتحقيق الحداثة المبدعة هو الخروج من ضيق حداثة الزمن إلى سعة حداثة القيم؛ أي الخروج من واقع الحداثة في تطبيقاتها الغربية إلى روح الحداثة في قيمها الاجتماعية, وهذا ما عبر عنه قوله: «واقع الحداثة اليوم عبارة عن نقل للحداثة الموجودة في واقع الحداثة الغربية, وهذا النقل ليس فيه ابتكار ولا جمال, ونكون مبدعين للحداثة بواسطة التفريق بين واقع الأشياء وروحها».

الشيء الذي جعل معظم المفكرين والباحثين يرونه مطلبا لا يتحقق خارج دائرة التصوف الذي تتجلى فيه مجموعة من المبادئ الإنسانية أو القيم الروحية, والتي يمكن أن يتشارك فيها الجميع- وعليه المقصود بالحديث هنا ليس فقط الجزائر أو المغرب بل كل دول المغرب العربي والعالم عموما والجزائر على وجه الخصوص من خلال كل الطرق الصوفية التي لا تمت للآخر البعيد عن كل ما هو روحي-؛ والتي يعاد من خلالها تشكل هوية الإنسان في بعدها الغائي والحياتي, في عصر سادت فيه عناوين ومفردات وتصورات مثل: (حرب القيم, صدام القيم, نمذجة القيم, شيوع العدمية, فقدان المعنى, احتضار الأخلاق, أو تهاوي معاني الاهتداء...), مما جعل هوية الإنسان مهددة في مستواها البيولوجي ومستواها الثقافي, إذ تم تشكيل الإنسان من خلال نظام الحضارة المعاصرة, وتفصيله وفق مقاساتها وفلسفتها والتي من أهم خصائصها؛ إسقاط البعد الغائي في الكون والحياة إلى درجة إن بعض المفكرين يسمونه "عصر هزيمة الإنسان" أو "عصر موته".

وفي مقدمة هذا المداخلة سنحاول الإجابة على جملة من التساؤلات:

- ما معنى مصطلح "التصوف", ومصطلح "الحداثة", وأين تكمن تحولاتهما عبر التاريخ؟
- أين تتجلى مكامن الحداثة في الفكر العربي الإسلامي المعاصر؟
- فيما تتمثل نقاط العلاقة الجدلية بين التصوف والحداثة؟
- ماهي أهم الانتقادات والحلول التي يمكن الوقوف عليها من خلال دراسة مرحلتي الحداثة وما بعد الحداثة, وعلاقتهما بالفكر العربي الإسلامي؟

التأثيـــــل المفـــاهيمي:

وإذا كنا قد حددنا عنوانا لهذه المداخلة الموسوم بـــ: جدلية العلاقة بين الحداثة والتصوف في الفكر العربي الإسلامي (قراءة في التصورات...وانتقادات في النتائج), فإن الاشتغال بهذا العنوان يتطلب منا أن نحدد في البداية مصطلحا ته الأساسية؛ والتي التزمنا في تحديدها بمصطلحين أساسيين لضرورة تداولهما في مقدمة هذه المداخلة؛ و هما مصطلح: " التصوف"و "الحداثة ".

1– مفهوم (التصوف):

(في الفرنسية Mystique– وفي الإنكليزية Mystic – وفي اللاتينية Mysticus)

1–2– جنيالوجيا :

أ– في اللغة الفرنسية : (MYSTICISME , MYSTIQUE)

هو المقابل للمصطلح الصوفية، له عدة مفاهيم منها أنه " هو المعرفة على حسبها يوجد ترتيب للحقائق فائقة الطبيعة التي لا تستطيع الوصول بالإدراك الغريب للتجربة المؤدية إلى المعرفة العقلانية " كما أنه أيضا " حالة سيكولوجية للذين لهم الحس بالدخول مباشرة في علاقة مع الرب ".

وبمعنى آخر: " هو المعرفة أو الإيمان مضاد للعقل يرفض الذكاء و الملاحظة، و يقوم على الإحساس و الخيال ".[1]

كما نجدها في قاموس آخر تعني : " مجموعة الإيمانيات الدينية أو الفلسفية، والتي عن طريقها يتوصل الإنسان إلى مستوى الكمال، هذا الأخير يتمثل في نوع من التأمل يوصل صاحبه إلى المستوى الوجدانية التي يمكن أن تتيح عملية إتحاد الإنسان بربه (الإله).[2]

والمفهوم هنا لا يخرج عموما على أنه التأمل, أو التبصر الروحاني الخاص بالإنسان.

ب– في اللغة العربية :

أن كلمة التصوف و صوفية مأخوذة من الصوف, لأن الصوف كان منذ زمن قديم اللباس الغالب على الزهاد. [3] كما أنه علم يعرف به كيفية السلوك إلى حضرة ملك الملوك، و تصفية الوطن البواطن من الرذائل و تحليتها بأنواع الفضائل، أو غيبة الخلق في شهود الحق أو مع الرجوع إلى الأثر فأوله علم و وسطه عمل و آخره موهبة.

والصوفية اسم مشتق أما من الصفاء لأن مداره على التصفية، أو من الصفة لأنه اتصاف بالكمالات، أو من صفة المسجد النبوي, لأن الصوفية متشبّهون بأهل الصفة في التوجه والانقطاع أو من الصوف – كما هو مشار إليها سابقاً – لأنه جل لباسهم الصوف تقللاً من الدنيا وزهداً فيها اختاروا ذلك لأنه كان لباس الأنبياء – و حسب رأي ابن عجيبة الحسني– أن هذا الانشقاق أليق لغةً و أظهر نسبة؛ فيقال تصوف إذا لبس الصوف كما يقال تقنص إذا ليس القميص والنسبة إليه صوفي. [4]

ج– و في الاصطلاح :

قال "خليل أحمد خليل" :« الصوفية أو التصوف: طريقة روحية دينية, أو مذهب فلسفي خاص قوامه القول: إن المعرفة اتصال مباشر بين الروح و المطلق، دون استعانة بالعقل العملي؛ أما الصوفية مذهب ديني يرمي إلى إتحاد الإنسان بخالقه من طريق التأمل و التوحد و الوجود و الفناء».[5] ويقول" محمود يعقوبي" :«النظرة التصوفية هي دعوى مشاهدة حقائق الأشياء والأمور مشاهدة باطنية عن طريق الحدس و الوجدان اللذين لا يمكن التعبير عنهما باللغة و التفكير العقلي».

وعن علاقة مصطلح الإنسان والصوفية بالكمال لا بأس أن نشير هنا إلى ضبط مختصر لهذا المصطلح: فـــ كمال أول (Entéléchie) مفردة ابتكرها " أرسطو" و عرفت في اللاتينية بعبارة المنجز، الكمال الناشئ من هذا الإنجاز و هو الشكل أو العقل الذي يجد إنجاز قوة ما.

والكمـــال الأول هو الجوهر الفرد (Monade) عند" ليبنتيز" القائل في كتابه (Leibniz monadologie , p 18):« يمكن إطلاقه على كل الجواهر اللطيفة, أو الجواهر الفردية المخلوقة لأن فيها كمالاً معيناً و فيها اكتفاء يجعلها مصادر لأفعالها الداخلية و للآليات الذاتية اللاجسمية إذ جاز القول».[6]

أما "معروف الكرخي"(ت 200هـــ/815 م) قال: « التصوف هو الأخذ بالحقائق و اليأس مما يدي الخلائق »، وقد انتشرت كلمة الصوفي في العالم الإسلامي بعد أن قالها " أبو هشام الكوفي"(ت 156هـــ/715م).

ومن المواضيع التي اختلف فيها الدارسون هي أصل التصوف: هل هو هندي أو رهينة مسيحية، أو هل هو رد فعل لعقلية الآرية ضد الدين الإسلامي و حضارته في فارس أو هل هو امتداد للفلسفة اليونانية أم نابع من البيئة العربية الإسلامية؟ يقول الأستاذ عميراوي: « قد يكون التصوف الإسلامي مشتق من الكلمة اليونانية (Théosophie) التي تعني إله الحكمة، في حين يقول المتصوفة المسلمون إن التصوف مؤسس عن الكتاب والسنة وقائم على سنة الأنبياء الأصفياء».[7]

1–3– كرنولوجيا:

إذا كان النظر إلى الإنسان نظرة روحية فأنها ليست وليدة التفكير الحديث أو المعاصر، ولكن ترتبط مفاهيمها بعمق التفكير الإنساني.[8]

حيث نشأة الصوفية كحركة رد فعل و نفرة في مطلع العصر العباسي حينما عما الترف و كثر انغماس الناس في الإسراف و الملاذ من ذلك كله و اتجهوا إلى حياة الزهد, و لقد كان قبله العصر الأموي زهاداً لم يكن قد بلغوا من حيث التطرف و الاتجاه العقلي إلى أن يسمى تصوفاً.

والتصوف الإسلامي نشأ في بيئة إسلامية ثم تسربت إليه عناصر أجنبية. [9] نختصرها هنا :

– من المذهب الإسكندراني: الرياضة الروحية وغايتها التأمل الدائم في الله تعالى حتى تدخل النفس في حال من الذهول و الوجد.

– من الهنود: تعذيب النفس بالإيغال في التقشف و بالتطرف في العبادة مثال:(النرفانا).

– من الفلسفة الصينية: انتقلت له كثير من التعابير طريق سفر, والتصوف بهذا المعنى ليس أحوالاً عارضة للإنسان, و لكنه " سفر في طريق " أو" السلوك مستمر على منهج معين ".

– من النصرانية : إنتفل إليه عنصران تعذيب النفس (و هو شيء موجود في الهندوكية), والتبتل أو

(ترك الزواج و ترك السعي في الدنيا), وأثر هذا واضح في المتصوفة البغداديين, وهو مخالف للحياة الإسلامية برأي أغلب المتصوفة المسلمين أن ذاك. والتصوف الإسلامي مر بخمس مراحل, [10] نذكرها هنا باختصار:

1– مرحلة الزهد : القرن 1 و 2 هـــ إستمرت عدة قرون(رابعة العدوية).

2– مرحلة التصوف الخالص : القرن 3 و 4 هـــ كعلم مكتمل, و طريق للمعرفة بعدما كان مجرد طريق للعبادة (الحارث المحاسبي، البسطامي ، الحلاج).

3- مرحلة التصوف الإسلامي السني: القرن5 هـــ(القشيري و الغزالي، مذهب أهل السنة والجماعة).

4- التصوف الفلسفي: القرن 6 و7هـــ(شهاب الدين السهر وردي الإشراقي، محي الدين ابن عربي).

5- الطرق الصوفية: و قد تكونت الطوائف الصوفية بشكل واسع كاد يعم العالم الإسلامي, وأصبح " الشيخ " (شيخ الطائفة) له منزلة بين مريديه, وقد اختلفت الطرق الصوفية باختلاف شيوخها.

ومن خلال المفهوم اللغوي والاصطلاحي يمكن أن نشير إلى المقصود عندنا من مصطلح الصوفية – في مقدمة هذا المقال - وهو كالآتي:« التصوف أو الصوفية: طريقة تقوم على مجموعة من الأرآء والمبادئ, قوامها أن المعرفة اتصال مباشر بين الروح والمطلق- الله- دون الاستعانة بالعقل العملي؛ أو نقول: مذهب ديني أو روحي يرمي إلى إتحاد الإنسان بخالقه عن طريق التأمل والتوحد والفناء والعمل بمدلولها يؤدي بالإنسان إلى درجة الكمال, ونطلق عليه "التصوف الإسلامي" كون هذا الأخير في مرجعيته الفكرية والعملية ينطلق من السنة والكتاب».

2 – مفهوم الحداثة:

(في الفرنسية Moderne- وفي الإنكليزية Modern - وفي اللاتينية Modernus)

2-1– **جنيالوجيا :**

أ- في المعنى العام:

بالمعنى العام:« ينطبق على صفة ما, ومن المرجح أن يكون تميز من وجهة النظر هذه بالانتماء

إلى المعاصرة؛ ويمكن وصف أي وقت " بالحديثة " إذا كانت تتميز على تلك التي سبقتها».[11] أو:(خفة, بالانطباعات الراهنة, بلا حكم على الماضي وبلا تفكير فيه. أنظر: (R. Eucken, Geistige StrÖmungen de Gegenwart, Section D, §, 2, Appendice : «le Moderne»)

ب– في اللغة العربية:

– الحديث في اللغة نقيض القديم, ويراد فه الجديد ويطلق على الصفات التي تتضمن معنى المدح أو الذم؛ فالحديث الذي يتضمن معنى المدح صفة الرجل المتفتح الذهن المحيط بما انتهى إليه العلم من الحقائق, المدرك لما يوافق روح العصر من الطرق, والآراء, والمذاهب.

– والحديث الذي يتضمن معنى الذم صفة الرجل القليل الخبرة, السريع التأثر, المقبل على الأغراض التافهة, دون الجواهر العميقة؛ والمعرض عن القديم بمجرد قدمه لا لخبثه وفساده.

ومعنى ذلك أن الحديث ليس خيرا كله, كما أن القديم ليس شرا كله, وخير وسيلة للجمع بين محاسن القديم والحديث وأن يتصف أصحاب الحديث بالأصالة, والعراقة, والقوة, والابتكار ؛ وأن يتخلى أصحاب القديم عن كل ما لا يوافق روح العصر من التقاليد البالية, والأساليب الجامدة.[12]

ب– في اللغة الفرنسية:

– وحداثة: (Modernity – Modernité):

– من الحدث وتعني الحضور أو الراهنية أو الحينية (الحينونة), فالحداثة هي حركة الحدوث, التحديث والعصرنة, حركة المسار الاجتماعي, حركة تباين تعقلن وتعلمن.

– أو الحداثة هي غير مسار التصنيع ذاك أن الحداثة في أوروبا سبقت التصنيع وتقدمت عليه على المستوى الفكري, فيما تقدم مسار التصنيع في اليابان و لم توجد حداثة على صعيد الاعتقادات والعادات.

– أو الحداثة هي قطع معرفي, علمي وعلماني, مع الموروث (قطع أوروبا مع تعاليم الكنيسة) مثلا, وانفتاحه على العلوم اليونانية والعربية وإعلائها بلسان "ديكارت" : « أنا أفكر» تاريخ مولد الفرد الحر, في القرن (16م). والحداثة تقابلها الأصالة وما يتصل بها من أصوليات وحركات ارتجاعية.[13]

– وحديث (Moderne- Modern):

– الحديث والمحدث من الأمور والآراء هو الحديث الطارئ منها, والذي لم يكن معروفا ولا شائعا، وهو يستعمل إما للمدح فيدل على تفتح الفكر وإطلاعه على ما جد من المعارف وإعتاقه من التقليد, وإما للذم فيدل على الطيش والإنسان وراء كل جديد في الحاضر ومن دون تعقد في الماضي. والفلسفة الحديثة تبدأ في أوروبا في القرن (16م) وفي العالم الإسلامي في القرن (14م).

– تحديث: (Modernisation- Modernization):

– التحديث في الميدان التقني هو ترك استعمال الوسائل القديمة لقصورها وتعويضها بوسائل جديدة متقدمة, وفي الميدان الثقافي هو ترك الأفكار القديمة لفسادها واعتمادها المعارف الجديدة المتقدمة, وترادفها والعصرنة.[14]

2–3– في الاصطلاح:

– في الفلسفة:

في تاريخ الفلسفة تعني : "الحديثة " نقطة البداية زمن الحداثة الغير الثابت والواضح :« أي يجب أن تعارض أي شيء عتيق تتبع بعكس وبدقة أكبر ظهور

فكرة أخرى مثل النهضة الفكرية التي قام بها الفيلسوف " ديكارت "على أفكار القديس "أوغسطين", والذي عرف عصره "بعصر التنوير"», وما يؤكد الحداثة وجود تردد في الجمالية نفسها بغض النظر عن الخلافات بين القدماء والمعاصرين؛ والتردد مختلف مع " بود لير" :« الحديث هو الحديث», أو مع " أبو لينير" :« أن مشروع الحداثة يعني ما هو المطلوب في البحث والتقدم ». [15]

2-4- **كرنولوجيا:** [16]

في البداية كانت تعني تحديد الصفات الثابتة التي أصبحت تدريجيا " الحديثة ", ومع ذلك فإنه يمكن تحديد منشأ الحداثة في القرن (16م) في أوروبا وحدها؛ حتى لو كان التأثر لا حقا أجزاء أخرى من العالم, حتى الدعوة إلى أن "التحديث الاقتصادي"؛ وأثار هذا التقارب الحديث للبروتستانتية (وميلاد الرأسمالية), نتيجة الاكتشافات العلمية وإيديولوجية التقدم وبلغت الحداثة ذروتها في "عصر التنوير".

ثم تطورت اللفظة من مفهوم " الحداثة " إلى مفهوم "مابعد الحداثة " وشروط " ما بعد الحداثة " حيث وفقا " ليفي بريل" عالم الأخلاق أو العادات في دراسة سوسيولوجية وإيجابية لكل المبادئ الأخلاقية التي تحكم المجتمع, وينبغي أن تحل محل النظرية الأخلاقية, مع اختلاف القواعد على القواعد على أن تكون غير مشروطة.

- وانطلاقا من القرن السادس عشر الميلادي, لفظ "حديث" أصبح مستعمل بكثرة منذ القرن العاشر في المساجلات الفلسفية أو الدينية, ويكاد يستعمل دوما بمعنى ضمني, إما لعبي (انفتاح وحرية فكرية معرفة أحداث الوقائع المكتشفة أو أحداث الأفكار المصاغة, غياب الكسل والرتابة.[17]

- وبالمعنى التقني, الحديث يتعارض مع الوسيط (وأحيانا باتجاه عكسي, مع المعاصر): "التاريخ الحديث" هو تاريخ الوقائع التالية لسقوط القسطنطينية, في سنة

1453م؛ "الفلسفة الحديثة" هي فلسفة القرن السادس عشر والقرون التوالي, حتى أيامنا مع ذلك غالبا ما يطلق على "باكون" و"ديكارت" اسم مؤسسي الفلسفة الحديثة.[18]

وعند المفكر "طه عبد الرحمن" المقصود به: "حداثة القيم" لا "حداثة الزمن" أو" روح القيم" لا " روح الأشياء", ومعنى أن الحداثة أو روح الحداثة :« هي مجموعة القيم ومجموعة المبادئ التي يكون هذا الواقع تجسيدا لها, وتطبيقا لها بمعنى ينبغي أن نبحث عن هذه المبادئ و هاته القيم التي يعد الواقع تطبيقا لها». وهذا المفهوم يعتبر مفهوم مبتذلا؛ إذا لم ننقل المبادئ التي تعرف بها الحداثة الغربية مثل (مبدأ الفردانية , ومبدأ الذاتية, وما إلى ذلك....)؛هذه مبادئ روح الحداثة عند الغرب, إما عندنا فقد حدد لها المفكر"طه عبد الرحمن" مبادئ أخرى هي(مبدأ الرشد: لا تقبل وصاية أحد على تفكيرك, ويتفق هذا مع تصور التداولي الإسلامي, ومبدأ النقد أو الاعتراض: والذي كان موجود عند المسلمين, وفي مجال التداول الإسلامي, ويعتبره حق من حقوق المتلقي لإثبات رأيه وبمعنى آخر القدرة على مراجعة كل شيء؛ ومبدأ الشمول: أي أن الحداثة من صفاتها أنها تنتشر في المجتمعات كلها, ولا يمكن حصرها في مجال محدود), وهذه المبادئ الثلاث ينبغي أن نأخذ ها كمسلمات في مقابل المبادئ أو المسلمات التي أخذها الغرب إذا أردنا أن نكون حداثيين.

وبمعنى آخر يقول المفكر "طه عبد الرحمن": الحداثة أو روح الحداثة :«عملية جمالية أصلا, يعني تنشأ الجديد وتولد, وتبدع, وتخرج أمورا يندهش لها الإنسان الآخر, ويتلقاها وكأنها تأتيه بقيم جديدة ».[19]

مكامن الحداثة في الفكر العربي الإسلامي:

أ– في القرآن الكريم:

تكمن حركة التحديث في التصوف الإسلامي كحركة أدبية وكلامية وعقلية نشأت في الإسلام من خلال مراحل التصوف, وتجدد معاني التوحيد الحقيقي عن طريق المعرفة أو الحب, سواء عن طريق اعتياد الزهد أو عن طريق طقوس الوجد المؤدي إلى الغياب عن الحضور, حيث كان القرآن لكل مسلم وللصوفي خاصة « قاموسه الجامع بلا منازع, ومرجع كل علومه, ومفتاح تأملاته الكون», هكذا قال" لويس ما سينون".[20]

ولقد لعب الصوفية دورا هاما في تطور وتحديث علوم القرآن, فطريقتهم في التفسير شاملة, من المعنى اللغوي البسيط إلى التأويلات المصاحبة للرموز والصور الإستعارية, دون لأن يكون هنا إنكار للمظهر الخارجي لكلمات القرآن.[21]

2–في الفن:

عرف التاريخ الإسلامي عددا كبير من الطرق الصوفية كالقادرية و الرفاعية والسهر وردية والشاذلية البدوية والدسوقية والمولوية والنقشبندية والبكتاشية و اليونسية, وقد أنقرض بعض هذه الطرق وبقى البعض الآخر, ودلائل الحداثة في الفكر العربي الإسلامي تتضح لنا في هذا المجال مما كتبه حجة الإسلام "أبو جامد الغزالي" في كتابه "إحياء علوم الدين" في الحديث عن الطرق الصوفية والسماع لاسيما في المجلد الخامس. لكن في عصرنا الحالي غالت بعض الطرق في استعمال هذه الوسائل التي أنتجها عصر الحداثة التقنية والتكنولوجيا, مما جعل الطرق تميل على الغاية المقصودة من وجودها.

وإذا أردنا الوقوف عند بعض الفنانين العرب الذين تأثروا في فنهم بالأبعاد الصوفية من كلمة ولحن وسلوك رغم عدم كونهم زهاد أو صوفية بمعنى الكلمة, نذكر الفنان السوري "بشار بن زرقان" الذي بذل جهدا كبيرا في إحياء الشعر

الصوفي من خلال قصائد (ابن الفارض, ابن عربي, ورابعة العدوية...), وموسيقى الشعر الحديث؛ وإلى جانب هذا جمع الفنان موسيقاه بالفن التشكيلي لتبرز لنا العلاقة القوية والمنافسة بين التصوف والحداثة.

جدلية العلاقة بين التصوف والحداثة :

أ– العلاقة بين الشعر الحداثي والتجربة الصوفية:

أن التجربة الصوفية أسهمت في تفعيل المخيال الشعري, وأزكت روح الغموض فيه, وفصلت العرفانية على البرهانية والإشراق على التذكر, رغما ما يجمعهما وهو التمرد على سلطة العقل؛ والمفكر "أدونيس" كرس خطابه الشعري والنقدي لتقويض سلطات ثلاثة تتحكم في الوعي العربي سلطة (النص الديني– النص التراثي– العقل السياسي), لذا يقول الناقد الجزائري "سفيان زدادقة" أن المفكر "أدونيس" عمل بأسلوب قائم على تفكيك الهوة بين النص والواقع نقدا — وهذا من منطلق آلية من آليات الحداثة الغربية ألا وهي آلية التفكيك– وأخطر ما عمله "أدونيس" هو نقله للخطاب الصوفي من دائرة الإلهي إلى دائرة الإنساني, مطوعا إياه لينسجم مع خطاب الحداثة السريالية ومبادئها.

ويرى الباحث"منصور إبراهيم" إن كل من الصوفية والحداثة الشعرية تبحثان عن غايات مشتركة, منها الدعوة إلى الصفاء والنقاء, فالمتصوفة والشعراء استعملوا اللغة الشعرية الإيحائية, وذلك للتعبير عن تجاربهم وأحوالهم ومقاوماتهم كل بمجاهداته الخاصة به, وبذوقه وباتصاله وبانفصاله, بل أن التكرار وهو من مميزات الشعر الحديث سمة لازمة في أوراد الصوفية وأذكارهم.[22]

كما أن لكلا منهما الصوفي والشاعر معاناته وقلقه, وبحثه المتواصل عن العدل والحقيقة, ولكل منهما تأمله ومكابدته واغترابه ووحدته, وترقيه للحظة الإلهام أو

التجلي, بل أن هناك من رأى أن أهل الفن كأهل الطريق, وفي كليهما معاناة داخلية وصراع مع الذات للوصل إلى عمق التجربة....[23]

ب- التصوف بين ثنائية الحداثة والشعور الديني:

- **البعد الإنساني في ظل تحديات الحداثة:** [24]

في الوقت الذي ساهمت الحداثة في إحداث نقلة نوعية في تاريخ البشرية حيث انتقلت بها من مرحلة التفكير الخرافي والأسطوري إلى مرحلة التفكير العلمي, في الوقت نفسه ساهمت في القضاء على "الشعور الديني للإنسان" ونشر الخواء الروحي والتفكير المادي لديه, ومسح هوية الإنسان وخلق أجيال ضائعة معنى للهوية والأخلاق أو الهدف من الحياة.

- **الشعور الديني والتصوف:** [25]

لقد أختلف الفلاسفة والمفكرون حول سبب نشوء الأديان, فإذا كان البعض يرجعه إلى الخوف فالبعض الآخر يرجعه إلى الرغبة في رضي الله وحبا له وعشقا فيه لذاته سموها بعبادة الأحرار, فإن ثورة الحداثة التي أنهت التفسير اللاهوتي للعلم والكون ساهمت في قيام المجادلات اللاهوتية العقيمة وزاد الأمر حدة الأحزاب الدينية التي تشكلت عبر الخلافات السياسية ومناطق النفوذ الاقتصادي والسياسي مما أفقد الناس الثقة في الكثير من المسائل الدينية المرتبطة بالإيمان.

وعليه فأن الخطر الذي تواجهه المجتمعات العربية الإسلامية لا ينحصر في الحركات الأصولية أو التعصب الديني بقدر ما ينحصر في أمراض الحداثة حسب وصف المفكر "علي حرب" في الديار العربية والمفكر الفرنسي "جاك دريدا" في الديار الغربية وغيرهم, من اللذين نبهوا من خطر الحداثة على مستقبل البشرية؛ إذ رأوا في التصوف والعرفان البديل الروحي في الرد على التنظيمات الدينية المتطرفة

والتي فجرت الرأي العام ضد الإسلام والمسلمين خصوصا بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر.

ج– مواقف غربية من الحداثة الصوفية:

- **الاجتهاد الروحي وما بعد الحداثة:** [26]

يقول الأديب الفرنسي "أندريه مالرو" : «أن القرن الحادي والعشرين سيكون قرنا دينيا, أولن يكون», والتي استوحى على منوالها الباحث الجامعي الفرنسي " أريك جفروا" – باحث متخصص في دراسة التصوف الإسلامي – والذي لا يخفي انتمائه إليه, وقد ألف كتابا بعنوان "الإسلام سيكون روحيا أو لن يكون", وهو في هذه الدراسة يتجاوز المنحى الأكاديمي الوصفي والتجربة الباطنية ليقدم مشروعا كاملا و متكاملا, لإحياء علوم الإسلام, وتجديد أو تحديث مقربة التدين من خلال نموذج "الاجتهاد الروحي" الذي يقدمه بديلا من "الاجتهاد الفقهي" المحدود, ويراه المسلك الملائم لحقيقة "ما بعد الحداثة".

وهذا من خلال التركيز على ثلاث إشكاليات جوهرية:

– الأولى: "قلب القيم" في التجربة الإسلامية, أو ما يسميه البعض اليوم "بحرب القيم".

– الثانية: تتعلق بإمكانية إخراج التصوف من قالبه الباطني لتطبيع وضعه المعرفي داخل الحقل النظري تأويليا وإبستومولوجيا, فالتصوف عند "جفروا" ليس عادة لغة رمزية شاعرية يحتكرها خاصة الخاصة, وإنما يتأسس على مجموعة من الأدوات النظرية والمنهجية التي يمكن أن تصاغ بلغة مفهومة للجميع.

– الثالثة: تتعلق بالمرور من الحداثة الفاقدة للروحية إلى مابعد الحداثة المستعيدة للروحية , والواقع أن"جفروا" ليس أول من طرح هذا التصور بل سبقه إليه بعض

الفلاسفة والمفكرين لعل أبرزهم هو الفيلسوف الإيطالي "جاني فاتيمو" الذي أعتبر أن انهيار الميتافيزيقا يدشن أفقا جديدا للروحية بدل القضاء عليها.

د– الحركة الصوفية و مابعد الحداثة:

إن الحداثة الأدبية أو الجمالية ليست أكثر من بدعة ستزول حتما عندما لا تجد من يستهلكها بسب انفصالها عن الواقع الاجتماعي للأمة العربية الإسلامية, وهذا راجع لغياب عدة أسباب لتأسيس مرحلة ما بعد الحداثة أهمها:

– ظروف التمايز بين الثقافات المتدينة وغيرها.

– غياب صفوة في المجتمع تحملت على عاتقها مغامرة والإبداع والتطور بعيدا على دائرة العلمنة والتبعية الاستهلاكية.

– الصراع الذي تخوضه مابعد الحداثة الجمالية نفسها مع مؤسسات الحداثة الثقافية التي قادت التحديث الأدب المحلي, لا سيما ما يتعلق بالتاريخ واللغة ومفهوم الهوية الوطنية, وهذا ما يعمل على تحقيق المشروع الصوفي الذي أخذ يتغير تحت وطأت الضغوطات المختلفة (الحداثة – العولمة – المعاصرة – التقنية....وغيرها).

هـــ– منطلقات القراءات الحداثية عند الغرب وانعكاساتها على التصوف الإسلامي والشعر العربي :

كان المتصوفة قادة الثورة اللغوية في التاريخ العربي, ويمكن القول إن بداية الحداثة في تاريخ اللغة العربية, انطلقت مع كلام المتصوفة, إلى اليوم يعتبرون سادة علم اللغة, ومازال تأثيرهم قويا في الشعر الحديث, في الأدب المعاصر عموما, وللأسف فعلا أنه لم يأت, منذ أيام المتصوفين العرب إلى اليوم, ومن جاء وأستطاع أن يفجر اللغة ويتفوق على اللغة الصوفية؛ ومن المتأثر بحداثة اللغة الصوفية الشاعر "أدونيس" كما يسير الباحث "عقبة زيدان".[27]

ويرى الناقد الجزائري "سفيان زدادقة" في كتابه "الحقيقة والسراب" (الصادر عن دار العلوم ناشرون –2008), ومن خلال قراءة عميقة لما يسميه البعد الصوفي عند "أدونيس", إذ يشر إلى دور هذا الشاعر المؤسس في إرساء دعائم حركة الحداثة الغربية في الشعر, وعلاقته المعقدة بإرث الحضارة الغربية وفلسفاتها, وتأثره بها يبدو واضحا من خلال موقفه القائم على التفكيك الموازن بين الصوفية المشرقية كتجربة تسعى إلى تجاوز الشريعة، وبين السريالية الغربية كحركة تعمل على تجاوز العقل والانصهار في الحلم, فالأولى تكرس مبدأ الكتابة الوجدانية القائمة على الشطح, والثانية ترسخ مبدأ الكتابة الآلية القائمة على التداعي الحر.

ك– تناقضات الحداثة الغربية:

- **أزمة المفهوم:**

أنها ليست:« مفهوم سوسيولوجيا أو مفهوما سياسيا أو مفهوم تاريخيا يحصر المعنى, وإنما هي صيغة التقليد, أي أنها تعارض جميع الثقافات الأخرى السابقة أو التقليدية». [28]

- **أزمة الفوضى والاختلاف:**

يرى الباحث والناقد العراقي " كريم الوائلي" في مقال – نشرته له "مجلة ديوان العرب", أكتوبر 2006– بعنوان " تناقضات الحداثة العربية ": أن الحداثة تنطوي على قدر كبير من الاختلاف الجذري مع الأسس التقليدية للثقافة والفن في الغرب, [29] وتعبر الحداثة الغربية على الفوضى الفكرية والحضارية التي عمت الحياة, والتي جاءت بها الحرب العالمية الأولى, فهي ليست أحادية اللغة ولا أحادية الأصل, وليست مرتبطة بمرحلة زمنية واحدة بل متعددة اللغات والأصول, ونتاج مراحل زمنية متداخلة. [30]

ل– مأزق الحداثة العربية:

• يرى المفكر "أدونيس" أن مأزق الحداثة العربية يتمثل في ثلاثة نقاط أساسية :

– أولا: الشعور بأن هناك انفصام بين الدارسين العرب وتراثهم الفكري وهذا يشير إلى بين ما سياسي فكري وفني, يتمثل السياسي في الحركات المناهضة للسلطة(الخوارج, الزنج, والقرامطة), وفكريا بالتصورات الاعتزالية و العقلانية والإلحادية والتصوف.أما التيار الفني فقد أبطل القديم وتجاوزه, وتحول فيه الإبداع إلى جهد إنساني يمارس فيه الإنسان"عملية خلق العالم".[31]

– ثانيا: يقول "أدونيس" :«...فجميع ما نتداوله اليوم فكريا وحياتيا , يجيئنا من هذا الغرب, أما فيما يتصل بالناحية الحياتية فليس عندنا ما نحس به حياتنا إلا ما نأخذه من الغرب, وكما أننا نعيش بوسائل أبتكرها الغرب فإننا نفكر بلغة الغرب من (نظريات, مفهومات, مناهج تفكير, ومذاهب أدبية, الرأسمالية, الإشتراكية, الديمقراطية, الجمهورية, اللبرالية, الحرية, الماركسية, الشيوعية, القومية, المنطق, الدياليكتيك, العقلانية, الواقعية الرومانطقية, الرمزية, السوريالية)». [32], وهذا معناه أن جزء من حداثتنا في جوهره حداثة اغترابية, بمعنى مغتربة عن الواقع الاجتماعي ومتعالية عليه, كما هي متعارضة مع التراث الأصيل.

– ثالثا: أن هناك حداثة "أنتلجنسية" بمعنى حداثة نخبة معينة يتداولها مثقفين لا علاقة لأفكارهم بواقعهم إذ لا يعبرون عنه ولا يؤثرون فيه, يقول المفكر المغربي"محمد عابد الجابري" :«أن هذه الصفوة فئة قلية جدا وغير مؤثرة التأثير الكافي في واقعنا الثقافي، إن الكتاب الذي يصدر بيننا و يؤلفه واحد منا نتداوله فيما بيننا نحن فقط, ولا يوزع منه إلا حوالي ستة آلاف فقط في شعب يزيد على مائة وخمسون مليون». [33]

• ويرى المفكر التونسي"أبو يعرب المرزوقي" أن الحداثة نوع من التصوف الدنيوي, لذا رفض اعتبار التصوف علاجا لأزمة المسلمين, باعتباره تكريسا للسلطة الاستسلام والخنوع لحساب القطب, متنافيا مع رسالة الإنسان كما ذكرها القرءان في استعمار الأرض واستخلافه عليها, وهذا معناها الاستسلام لسلطة خارجة عن المتصوفون, واتخاذها وسيطا بينهم وبين ربهم, والتخلي عن كل عمل والتفرغ للعبادة فقط, وهو ما يتنافى مع روح الإسلام.

وعن التصوف وأزمة المعاصرة, يقول: أن هناك نوعين من المعاصرة (الفعلية والانفعالية):

– الأولى: عندما يعاصر الإنسان ذاته من خلال المطابقة بينه وبين منتوجه.

– الثانية: تحدث للآخرين بإتباع المعاصر لذاته واتخاذه مثلا عليهم الإقتداء به, وهي ما يعرف بمصطلح "العولمة" في سياقها العالمي.[34]

• ويقول شيخنا " يحي بن معاذ " رحمه الله تعالى:« يابن أدم لا يزال دينك متمزقا ومادام قلبك يحب الدنيا متعلقا». {الصفوة:4/93}, وهذا ما يعكسه سلطان المتصوفة رحمه الله "إبراهيم بن الأدهم" [35]:

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا ** فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع

فطوبى لعبد أثر الله ربه ** وجاد بدنياه لما يتوقع

الحداثة في ميزان النقد واقتراح الحلول:

• أولا : المفكر "طه عبد الرحمن"

– النقد:

أن المفكر "طه عبد الرحمن" وتأسيسا على مذهبه الأخلاقي ينتقد الحداثة الغربية وعقلانيتها العلمية ....والتقنية مطالبا بقيام نظرية أخلاقية جديدة تستبدل السيادة

على الطبيعة بمفهوم "المسودية لسيد الكون" فالسيادة على الطبيعة نتج عنها الأضرار بالأخلاق الدينية, نتيجة الإقصاء أو الاستبدال أو الاستيلاء, والتي انعكست أثارها على النظام العلمي الذي لم يبلغ مراده من وراء قطع صلته بالأخلاق.[35]

– الحل:

يكمن حسب رئيس "منتدى الحكمة " في إنشاء نظرية أخلاقية ترتكز على الدين...وهي نظرية تستبدل وهي نظرية تستبدل مكان " التعقل" مبدأ "التخلق" الجالب للحكمة المؤيدة, وتستبدل مكان صفة "التنكر" مبدأ "التعرف "الجالب للبصيرة المسددة, وبما أن الحكمة المؤيدة لا تحصل إلا بترك العمل بمبدأ السيادة على الكون , وبالإقرار بهذه السيادة والدخول في الشعور بحال المسودية لسيد الكون أو قل حال العبودية له, فقد جاز تسمية النظرية المبنية على " التخلق" المفضي إلى الحكمة المؤيدة وعلى "التعرف" المؤدي إلى "البصيرة " المسددة بإسم نظرية "التعبد" فالتعبد إذن عبارة عن الجمع بين "التخلق" الحكيم والتعرف البصير.

- **ثانيا : المفكر "عبد الوهاب المسيري"**

– النقد:

يعترف المفكر"المسيري" بأن الحداثة الغربية حققت نجاحات أكيدة لا يمكن حصرها, ولكن سقوطها في الجانب المادي المبني على مرجعية فلسفية واحدية مسوية بين الإنسان وعالم الأشياء والسلع لا علاقة له بقيم الخير أو الشر...ولهذا وصف "المسيري" "الحداثة" قائلا: «بأنها منفصلة عن القيمة, فأنتجت لنا إنسانا جديد كل الجدة عن الشخصية التقليدية؛ فصور الإنسان الكامنة في الحداثة المنفصلة عن القيمة هو الفرد صاحب السيادة الكاملة», وهذا أدى لظهور نزعات

معادية للإنسان لا تعترف بكينونة بشرية, ولا بقيم إنسانية متجاوزة للمادة, إذ حققت هذه النزاعات جرائم مروعة ضد الإنسان مثل الحرب العالمية , وإلقاء القنبلة النووية ....وغيرها.

– الحل:

يتجلى لنا في إنسانية الباحث المصري الإسلامية في القيمة المركزية, والتي جعلت الإنسان معيارا لقياس التقدم الذي تدعيه الحركة الإنسانية في حضارة عصر الحداثة وما بعد الحداثة, وهذا التجديد في مستواه الفكري قائم على أنقاض النظرية الماركسية في نظريتها التجزئية للإنسان, لكن نظريته قائمة على الوحدوية لا التجزئية المتأثرة بمبادئ الحداثة الغربية القائمة على الفصل بين الجسد والروح, والعاملة على موت الإنسان؛ ولا يعتبر المفكر "المسيري" أول من تحدث عن الإنسان, وإنما سبقه في ذلك العديد من الفلاسفة خاصة أعضاء المدرسة النقدية. إذ يتقاطع في طرحه مع "ماركيز" و "هابرماس" و "أيريك فروم" ... وغيرهم في تشخيص واقع الإنسان الحديث الذي يبحث عن جوهره وكينونته الضائعة في عالم التقنية والبيروقراطية والترشيد الآداتي.

ويقول الباحث "نوفل بن براهيم" في دراسة نشرها بعنوان"التصوف الفر نكو أمريكي الجديد في المغرب – جذور وحقيقة": يبين خطر التصوف الفر نكو أمريكي العلماني في المغرب العربي من خلال دعم الولايات المتحدة الأمريكية, وتوصياتها من خلال مركز البحث المهتمة بدعم التصوف وتكوين دعاته وتدريبهم حتى يكونوا في مستوى مواجهة ما يسمونه بالأصولية الإسلامية مثل مؤسسة "راند", وقد اعتراف المستشرق الشهير "برنارد لويس" المعروف بصهيونيته وعدائه الشديد للإسلام والمسلمين بأن الغرب يسعى إلى مصالحة (التصوف الإسلامي),

ودعمه لكي يستطيع ملء الساحة السياسية والدينية وفق ضوابط (فصل الدين عن الحياة) ولإقصاء الإسلام نهائيا عن قضايا (السياسة و الاقتصاد).

خـــــــاتـــمة:

إذا تعددت طرائق الحداثة في عصر العلمانية والعولمة, فأن الحداثة التي تتجذر في تراثنا الأصيل

والتي يمكن أن تعيد إحياء وتجديد وتشكيل هوية الإنسان في سياقاتها المعرفية والفكرية؛ هي طريق التصوف لأن طريقتهم تتم بعلم وعمل, وتتتره بها النفس الإنسانية عن كل الرذائل , وهذا مالم يقع على يد جل مفكري ومنظري وعلماء العلمانية والعقلانية والعولمة والحداثة وما بعد الحداثة على حد سواء عند مفكري الغرب المنكرين لكل ما هو روحي, والمتشبعين بالماديات؛ أو عند مفكري العرب المغتربين والمنبهرين بنماذج الغرب الجاهزة, والمستوردين لما أنتجه هذا الغرب من بضاعة فكرية ومعرفية يتم اقتناؤها كألبسة جاهزة لواقع لا يربطها به أدنى صلة تداولية (لغة, دين, عادات, قيم, معرفة,....).

لكن التساؤل يبقى قائم حول مجالات تطبيق الحداثة الصوفية؟ هل تبقى منحصرة في الأدبيات الصوفية كالشعر المجال الوحيد، أم أنه يمكن توسيعها لتشمل مجالات أخرى كالتعليم، التربية، العمل...وإن كان ممكنا فما هي الطرق الأنجع لذلك؟

– الإحالات و الهوامش:

(*) أدونيس: فنان ثوري تميز بفكرة التمرد ضد المؤسسة الفكرية والدينية والثقافية القائمة.

1 Nathan. . - Gérard Durozoi-André Roussel, DICTIONNAIRE de philosophie France par I.M.E 2003 .P . 267. Imprime en

2- La rousse pluri dictionnaire, P. 927.

3- فروخ عمر، المنهج الجديد في الفلسفة العربية، دار العلم للملايين، بيروت، ط 1، 1970 ص 180.

4- الحسني ابن عجيبة، مصطلحات التصوف، أ ع و تق: عبد الحميد حمدان، مكتبة مد بولي، القاهرة، ط 1، 1999. ص 3 و أنظر أيضاً: الفاخوري حنا و خليل الجر، تاريخ الفلسفة العربية، ج1، دال الجيل، بيروت ، لبنان ، ط3، 1993.

5- خليل أحمد خليل، معجم المصطلحات الفلسفية، ص 103.

المرجع نفسه،ص 155.

6- راجع، خميستي سعد، أبحاث في الفلسفة الإسلامية، دار الهدى، الجزائر، دط، 2002، ص 24 و ما بعدها

7- حميدة عميراوي،بحوث تاريخية، دار البعث، قسنطينة،د.ط، 2001 ص60 وما بعدها

8- زرا رقة عطاء الله، ملامح التيار التربوي الروحاني، " الأسس و الأهداف "، مجلة دراسات العدد 09 جوان 2008، جامعة عمار ثليجي بالأغواط، ص 109.

9- راجع، عمر فروخ، المنهاج الجديد في الفلسفة العربية، ص 181 و ما بعدها، أنظر أيضاً : عبد الغني قاسم عبد الحكيم، المذاهب الصوفية و مدارسها، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط 2، 1999، ص (27 — 38)، راجع أيضاً : محمد تركي إبراهيم، فلسفة الموت عند الصوفية، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر،الإسكندرية،ط1 2003،ص19—21

10- محمد تركي إبراهيم، فلسفة الموت عند الصوفية، ص(29 — 33).

11 - DICTIONNAIRE de philosophie . Opcit, pp 115. -

12- صليبا جميل, المعجم الفلسفي, الجزء1, دار الكتاب اللبناني, بيروت, 1982, ص, (454-455).

13- خليل أحمد خليل, معجم المصطلحات الفلسفية, دار الفكر اللبناني,ط1, بيروت, 1995, ص(62-63).

14- يعقوبي محمود, معجم الفلسفة, الميزان للنشر والتوزيع, ط2, الجزائر,1998, ص33 .

15- DICTIONNAIRE de philosophie, Opcit, pp, 261,262

16-Ibid. p.262.

17 و18- قاموس لالاند الفلسفي, ص 822.

19- تلفزيون قطر الدولي, مالك التريكي, طه عبد الرحمن, مسارات (الحداثة, الجزء السادس), قناة الجزيرة الفضائية, قطر, 2006/06/19.

20- آنا ماري شيمل, الأبعاد الصوفية في الإسلام وتاريخ التصوف, منشورات الجمل, تر: محمد إسماعيل السيد رضا حامد قطب, ط1, ألماني, بغداد, 2006, ص32.

21- المرجع نفسه,الصفحة نفسها.

22- منصور إبراهيم, الشعر والتصوف, دار الأمين,دط ,القاهرة, 1999, ص146.

23- المرجع نفسه, الصفحة نفسها.

24- صالح عبد الله البلوشي, الإنسان بين الحداثة والشعور الديني, (مقال في ملحق نون بجريدة الشبيبة), عمان, بتاريخ:2011/05/09.

25- المرجع نفسه.

26- ملتقى ابن خلدون للعلوم والفلسفة والأدب, 2011/08/23, 23:18 PM.

27- عقبة زيدان, التصوف والأدب واللغة, في ملحق ثقافي لجريدة الثورة, يومية سياسية, تصدر عن مؤسسة الوحدة للصحافة والطباعة والنشر, بتاريخ:2011/1/11 م.

28- محمد برادة, اعتبارات نظرية لتحديد مفهوم الحداثة, مجلة فصول,العدد الربع, 1984.

29- ينظر : مالكوم براد بري, الحداثة , تر: فوزي حسين, مركز الإنماء الحضاري, دط, سوريا,1995.

30- صالح جواد الطعمة,الشاعر العربي المعاصر ومفهومه النظري للحداثة, مجلة فصول, العدد الرابع, 1984.

32- أبو يعرب المرزوقي, الحداثة نوع من التصوف الدنيوي, ملحق بجريدة الدستور يومية سياسية عربية مستقلة, تصدر عن الشركة الأردنية, للصحافة والنشر,العدد 15791 السنة الخامسة والأربعون, الاثنين 25رجب 1432هـ الموافق لـ 27 حريزان 2011 م.

33- يحي بن معاذ الرازي, جواهر التصوف, جمع وتبويب, وشرخ وتعليق, سعيد هارون عاشور, مكتبة الآداب,ط1, القاهرة,2006, ص 181.

34- طه عبد الرحمن, سؤال الأخلاق, ص(123).

35- المرجع نفسه, الصفحة نفسها.